

في الثوب والحصاة بين الدر ويقول للضرورة أحكام ، وجبذا لو صحت
الاحلام ، ووجدت طلبتي في يوم من الايام ،
هذا هو الخلاف الطويل المريض ضيق البحث حلقاه رويداً حتى
تضائل وانتهى الى تقدير النظر الى الكلمة المحتملة واستقبالها اما بالترحيب ،
واما بالتمطيب ، وهو خلاف غريب ،
حفتي ناصف



باب المناظرة والمراسلة

السنن والاحاديث النبوية

جاءتنا هذه الرسالة من الشيخ صالح بن علي الياضي أحد العلماء الفيورين
في حيدرآباد الذي يرد فيها على الدكتور محمد توفيق افندي صدقي فيما كتبه في
النسخ وكون الاحاديث ليست من أصول الدين ولطولها ننشرها بالتدرج بمبتدئين
بمقدمتها التمهيدية وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل محمداً بالهدى ودين الحق ، وجعل له لسان الصدق ،
صلى الله عليه وعلى آله واصحابه ، ومتبعيه وأنصاره واحزابه ،
أما بعد فاني قد وقفت على رسائل حفزة العالم الباحث الدكتور
محمد توفيق افندي صدقي كان يرمي فيها أولاً الى أن الاسلام بعد وفاة
رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القرآن مجرداً عن بيان الرسول (ص)
وتعاليمه غير معتبر لما زاده الله على ما في القرآن من أحكامه ولازم قوله
بل صراحتة دالة على نحو صورة الاسلام الموجودة وجواز تشكيله .

شاء بأي صورة شاء وكأنه استشعر شناعة ذلك فأعلن رجوعه عن اطلاق القول في رد جميع السنن وخص منها قبول السنن الفعلية التي نقلها الامة بالاجماع او بالتواتر . ورد جميع السنة القولية زاعما أنها آحاد وما تواتر منها ليس فيه شيء من الاحكام

وقوله هذا - وان كان أهون من قوله السابق ظاهرا - ما له وحقيقته بمد التزامه ثم تطبيقه على ما في نفس الامر الواقع هو حقيقة قوله الاول من رد اكثر السنن الفعلية بل لا يبعد اذا قلنا كلها لانه مامن فعل نقل الينا من تلك الافعال الا وقد اختلف في هياتها واحكامه المقومة لحقيقته . والمسلمون الناقلون لتلك الاعمال انما كان مستند اختلافهم في ذلك اما السنن القولية واما اجتهاد من يتأني له الاجتهاد منهم فاذا لم يجب أن تكون سنن الرسول (ص) القولية من الدين فلا بد ان تكون مجهودات غيره من الدين أولى وأحرى

وإذا كان كل فعل من السنن الفعلية قد اختلفت في صفاته وهياتها الطوائف والمذاهب بحيث يكون حقيقة هذا الفعل عند هؤلاء غير حقيقته عند أولئك - وإذا كان المستند السنن القولية أو الاجتهاد وسلمنا أن كلامهما ليس من الدين - لزم أن لا يعلم المتعين أخذه وأن لا يجب عمل مخصوص للزوم انتفاء المدلول بانتفاء دليله والمسبب بانتفاء سببه اذ لا دليل ولا سبب لوجوب أو حرمة أو نذب أو كراهة الا السنن القولية المفسرة للقرآن والناصة على أحكام الاعمال فاذا انتفت اتفق كل ذلك وجاز لمن شاء أن يقول ان الواجب من الاعمال كذا وكذا وان معنى القرآن ومراده ذا او ذا كيف شاء فماد الامر في جميع أمور الدين

الى الاجمال والابهام ولزم الانسلاخ عن دين الاسلام وهذا هو ما يتحاشا
 عنه كل من يؤمن بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم
 والحقير قد نبه حضرة الدكتور في رسالة ارسلتها الى حضرة سيدنا
 منشى المنار الاغر ولكنه ارسل الي مكتوباً يذكر فيه ان بعض تلك الرسالة
 ضاع عنه ويطلب ارسال ذلك اليه لطبع الرسالة ولكنني اعتذرت حيث
 لم يبق لدي منها شيء لاني ارسلت الى حضرة المسودة. ولما كتب حضرة
 الدكتور رسالته الاخرى التي طبعت في المنار (الجزء التاسع من المجلد
 العاشر) بعنوان (النسخ في الشرائع الالهية) رأيت صدر رسالته بالكلام
 على حقيقة النسخ واختار القول بمجوازه عقلا وشرعا ووقوعه في الشرائع
 الالهية والقوانين الوضعية البشرية وهذا شيء لا تنازعه فيه لكنه انكر
 وقوعه في القرآن فعلا وخص ذلك بالسنة النبوية ثم تدرج من مسألة
 النسخ الى تقسيم السنة الى قسميها فعلية وقولية وكل منهما الى متواتر
 وآحاد تمهيدا لما خلاصته ان القولية لا سيما الآحاد منها لا يجب العمل
 به بعد زمن رسول الله (ص) وزعم ان السنن القولية مطلقا انما هي شريعة
 وقتية تمهيدية لشريعة القرآن الثابتة الباقية وعل ذلك بالنهي عن كتابتها
 وزعم ان النبي (ص) واصحابه لم يعاملوها بالعبادة التي عومل بها القرآن
 قصدا منهم لان تندر وتزول من بين المسلمين فلا يعملون بها
 هذه خلاصة قوله لكنه يظهر من تناقض كلامه وجوب العمل
 وقبول ما كان متواترا من ذلك لا ما نقل آحادا سواء كان سنناً أو
 صحيحاً أو مشهوراً أو مستفيضاً
 وحيث كان ذلك مخالفا لدين الاسلام فيما أعتقد به

الآحاد الصحيح بجميع اقسامه مستلزم للطعن في القرآن وتكذيبه ومخالف
لجماهير المسلمين بل لجميعهم بل لجميع الاديان والملل وسائر متبمها بل
مخالف لما عليه مدار الاجماع البشري كل ذلك على ما أعتقد ولا احسب
ان احدا من عرف بالعلم والعقل كحضرة الدكتور يخالفني وينازعني في
ذلك بعد التفكير وبشرط الانصاف - حيث كان الامر كذلك فيما أعتقد
بمضي حب اظهار الحق والتعاون على البر والنصيحة الى مناقشة حضرة الاخ
الدكتور فيما كتبه في رسالته مما رأته خلاف الصواب لما عرفت من حسن
نيته ورجوعه الى الحق كما هي عادته

والتمس من مولانا المرشد وسيدنا العلامة القدوة داعي الأمام ،
لا تباع حقيقة الاسلام ، منشي المنار مولانا حضرة السيد محمد وشيدرضا
وأرجوه أن يدرج هذه البضاعة المزجاة في مناره، وان يسقط ما فيها من
الغلط بصائب أفكاره ، وان يشركنا في صالح دعواته، ولنعلم اننا بصدد
من الشروع في المقصود فنقول : (سيأتي المقصد)

﴿ تذنيه للمستفتين ﴾

اذا أراد المستفتي ان لا يتأخر نشر سؤاله والاجابة عنه فليكتبه على ورقة
مستقلة ولا يجعله في غمرة كتاب آخر فيكلفنا استخراج منه اذ ربما تمر الشهور
ولا نجد ورقاً للسخة . ومن سأل في ورقة واحدة عدة أسئلة فيفصل بينها في الكتابة
فيبتدىء كل سؤال بسطر جديد . وليكن الخط واضحاً . ومن علم ان في عبارته
غلطاً فليأذن لنا بتصحيحها ان شاء والا نشرناها على علائها أو أهملناها

الفصل الأول (*)

(مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة)

نشأت خديجة في بلد شأنه عجيب ، قصي عن العمران ، في واد غير
زرع ، لا تنساب فيه الأمواه ، ولا تكتشفه الحدائق ، ولا تقوم الصناعات
فيه دولة ، ولا يجد مبتني الزخارف لديه مجالا ، ولكن أبداه الله جمالا
مغزيا ، وكساه جلالا روحانيا ، فالأفدة تهوى اليه ، والظلمة تزجي له من
كل فج عميق ،

هذه البلدة المقصودة هي « مكة » المكرونة الشهيرة التي لا يجرى
اسمها وشهرتها أحد ، هي أم البلاد العربية واقعة في القطعة المسماة الحجاز
من شبه جزيرة العرب ، قائمة بيوتها في سهوح جبال محيطة بها
لم تقف على مقدار عدد نفوسها في تلك الأيام التي نشأت فيم خديجة
ولكن عدد مقاتليها لم يكن يتجاوز الاثنين في الغالب فيمكننا ان نحزر
أهلها اذ ذاك بنحو خمسة عشر ألفا كلهم أولاد أب واحد قد ورثوا
باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم
من القبائل . وذلك أن قصي بن كلاب استطاع ان يجمع جميع ذراري
فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل فلم تلبث ان
صارت لهم خاصة

(*) من رواية خديجة أم المؤمنين

وفي مكة هذه بيت مقدس قديم العهد يكاد يكون أول أمره
مجهولاً عند المشتغلين بالتاريخ اسمه بيت الله أو الكعبة . وكان جميع
عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التي شرّفوها
ويحجون إليه ، ويتعارفون ويتعاطفون لديه

كانت هذه البلدة المشرقة تضم بين تلك الجبال الميية أمة صالحة
الاستعداد للرقى متى أريت طريقه كما تضم الصدفة جوهرة لا يظن بهاؤها
ورواؤها حتى تعالج بمض المعالجة وتزال عنها القشور أما من حيث
الحضارة فلم تكن كما يتظر ابن حضارة هذا المصر من البلدان وإنما
هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة واللين ومسقوفة بمجدوع النخل خالية
من الزخرف

وهذا البلد الأمين باق إلى يومنا هذا لم يزد على طول القرون
الا تشریفاً وتكريماً ولم يتغير فيه الا أشكال الابنية وازدياد التجارة
والبيت المشرف لم يتغير وضعه ولا وضع الشماثر التي حوله وإنما بقي
هناك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعي

ومكة مهدودة اليوم من جملة بلاد الدولة العثمانية بيدانها لم تحرم
حتى الآن من أمير عربي يتصل نسيبه بسيدتنا خديجة هذه ، وتقوده
فيها وفيها حولها نفوذ تام يستمد من السلطان العثماني ومن احترام العرب
لهذه السلالة

ومن الآثار المشهورة الباقية في مكة بئر زمزم ويقولون ان قبيلة
جرم كانت دفنتها ثم احترقها عبد المطلب بن هاشم جد النبي (ص)
وكان ذلك من منافع عبد المطلب لأنه لم يكن بمكة من ماء الا في آبار

بعيدة عن البيت المشرف فلما أخرج عبد المطلب زمزم في جوار البيت انصرف الحاج اليها . ولحق زمزم حديث طويل خلاصته تدل على شغف عبد المطلب بتسييل الماء على الحاج فاذا تأملنا في حرص القوم على مثل هذه العناية بالفراخ وابتناء السبيل نعلم شيئاً من روح تربية الهمم وترقية المواطنين في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه «خديجة»

وكان من جيداً مراعاتها في مجتمهم ذلك أنهم اقتسموا النظر في الأمور العمومية فيما بينهم فكانهم كوّنوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام وكان أمر هذه الجمهورية الفريية الوضع سائراً على منتهى النظام ولكن لم يكن هذا النظام لسراً في ترتيب هذه الجمهورية فانها لا يؤمل منها في حد ذاتها ان تثمر نظاماً بالغاً منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية فالأخبار كلها دالة على ان القوم بالجملة كانوا كأنهم منطوروون على التضامن التام فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذي لا نهده نظيراً ان كل فرد من أفرادها تام الحرية لا يشعر بقهر حاكم ولا يخشى سطوة جبار وكل منهم في أمن من فوات الحقوق واعتداء الحدود . الجنايات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة ، والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد مسدودة ، وسلامة الفطر غالبية ، والمزايا التي بها كمال الانسانية راجحة .

فاذا أضفنا الى كل ذلك احترام الغريب وتوقيره ايام وتوقيه اذاهم نجد ان ذلك المجتمع لا يكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح في هذا المجتمع كان فيه عيوب فاذا أزيلت يصبح اول مجتمع

واق في الدنيا وخليتها ان يفيض على جيرانه من بركات العقول التي اشربت
بديع جماله، واشربت الى عظيم كماله، ثم نالت الى تعريف العالم بما اكدت
تلك البقعة التي لم تكن شيئاً مذكوراً من العقول المنيرة والارواح العالية
وقد وقع ذلك فن الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد
اتاح لهذا البلد الجمهوري من ينظفه من تلك الميوب التي اشربنا اليها فكان
بعد ذلك كما هو المتظر منه أي تم ظهوره فصار مشرقاً لنور عظيم بلغ مشارق
الارض ومقاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استعدادهم

اما الجمهورية التي اشربنا الى انها كانت في هذا البلد فقد اقاموها على
على أساس ياءنون معه من الزلزال وذلك اهم وأوا الشرف انتهى الى
عشرة رهط من عشرة بلون لاشتهارهم بأعمال مجيدة، ثم اجتمعوا اسرهم
على ان يكون النظر في الاءور العمومية من خصائص هذه البيوت
المشرة وراضوا على ان يكون لكل بيت من هذه المشرة وظيفة يختص
بها تعد من مناخره فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم
الاشراف وبذلك أعطوا الالمال التي يجذبها الفرد أو الاسرة حقها من
التكريم والتشريف ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم
وأخذوا أيضاً بشيء من أصول الحكم النيابي وهو أعظم الآيات على
وجود التضامن الذي هو أحد الاركان التي تحفظ بها سعادة الامم .

أما الشورى فقد وفروا منهم حظها، وعظموا في أنفسهم حقها، وبها
كأوا يشرعون ما يشرعون من الاحكام والحدود، ويفعلون ما يفعلون
في بعض القضايا والحقوق

وقد ألفوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدوها لنوا إذا صدقوا

في تضامنهم وصلحوا في تشاورهم وارانتهم الحق وقليلة الجدوى اذا مرض تضامنهم ووهي نظامهم . أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة اذا وجدت مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بمد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهية من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الأقربين . أو أنهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحداً لأنهم كلهم يحملون بين أضالمتهم نفوس الملوك وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحداً في وظيفة رئيس عام مؤقتاً

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا أولي شغف بالمحاربات فعلاقتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة ولكن هذا لم يقدمهم عن أن يكون استمدادهم تاماً لما ينزل بهم فان نزل بهم ما يطيقونه كشفوا الأثم عن قوتهم وبرزوا من غير تريث وان نزل بهم ما لا قبل لهم به تريثوا وعمدوا الى الأناة وفتقوا من الحيلة أو ابا يخرجون منها الى السمة من الضيق ومن قلّ الجيوش بالحسام الى فلها بالبيان وقد أعطوا من هذا حظاً عظيماً . ومن أشهر حوادثهم الخارجية التي ضاقوا بها ذرعا هجوم القائد الحبشي أبرهة الذي كان تلب على بعض بلاد اليمن فقددهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقاتله عبد المطلب جد النبي (ص) وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابله ولطف ببعض الشيء من حديثه التي كان بها مسوقاً لهدم « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواية الاخبار ثم أصابته داهية سماوية فقتل بجيشه ثانياً عزمه لانه رأى في أهل هذا البلد ما لم يكن يخطر له في بال

نعم رأى في مقدمه هذا على هؤلاء القوم عجيباً من الأمر وذلك

انه لما اتام أرسل اليهم رجلا حميرا كان معه اسمه حناطة وأوصاه ان يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فيبلغه ان الملك لا يريد الحرب وانما جاء لهدم هذا البيت فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قریش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به ابرهة فكان جواب عبد المطلب اننا لا نريد حرب به قال حناطة انه أوصاني ان يريد مواجعتك ان لم تردوا الحرب فانطلق عبد المطلب مع حناطة اليه فلما رآه ابرهة رأى الوسامة والجلال فأعظمه واكرمه وأخذته الى جانبه وقال للترجمان سله أن يقول ما يبدو له فلم يكن من عبد المطلب الا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت وجداله فيه بل أظهر الاقتناع بضرورة المسألة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المبد وقال له اذا لم يكن لك غير هذا الأرب فرد علينا ابنا قال ابرهة للترجمان قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أنكلمني في الاموال وتترك بيتا هو دينك ودين آباءك فأجابه عبد المطلب اننا نحن أرباب المال وأما البيت فله رب هو سيمنه فقال له انه ما كان ليمتع مني فأجابه أنت وذلك ورد ابرهة الا بل على عبد المطلب وبقي مصرا على عزمه ورجع عبد المطلب على قریش فأمرهم ان يقتصموا بالجبال، ولا يأتوا أمرا حتى يروا ماذا يكون وقد أتى من لندن العناية القبية ما لم يكن في الحساب فان ابرهة لما أصبح وتهايا لدخول مكة برك الفيل الذي كان يركبه وحرز واتوا كل باب من أبواب الجبل ليقوم ويمشي تلقاء مكة فلم يقم ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنف من الطير فتشاهم ابرهة وتدكر ما اندره به ذلك الرجل الجليل السني

الطلحة عبد المطلب من حماية هذا البيت بطريقة لا يلتمها عقله فخذت في صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه بإسلم ورموا عقله بسهم نافذ من يان عبد المطلب مع رمي الطير جيشه بحجارة من سجيل

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية وأشهرها ، وفي عام هذه الحادثة ولد النبي (ص) وقد سموه عام الفيل لما ذكرنا من قصته ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعدها باسم أصحاب الفيل وقد أشير إلى مجمل هذه الحادثة في القرآن المجيد

الفصل الثاني

(بيوتات قريش وخصائصها)

أما بيوت شرفهم العشرة فهي :

هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، واسد ، وتيم ، ومخزوم ،
وعدي ، وجميع ، وسهم ،

وأما الأمور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي : السقاية ،
والعمارة ، والمعقاب ، والرفادة ، والحجاية ، والسدانة ، والندوة ، والمشورة ،
والاشناق ، والقبعة ، والاعنة ، والسفارة ، والايثار ، والأموال المحجرة ،
هذه الاسماء أكثرها اصطلاحية يحتاج إلى تفسير يوافق العصر
الذي نحن فيه حتى نفهم شكل ذلك المجتمع الذي سميناه جمهورياً على
حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقاية فقد تفهم من اللفظ نفسه أي سقاية الحجاج الذين كانوا يأتون « بيت الله » من كل جانب ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أهم الامور العمومية في ذلك الظرف وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة

وأما العمارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام سفيه فيصح أو يرفع فيه صوته وكانت هذه الوظيفة أيضاً في بني هاشم الذين منهم العباس صاحبها

وأما العقاب فهي راية قریش كان من شأنهم فيها انهم يحتفظونها في بيت من البيوت المشرفة فاذا وقعت حرب أخرجوها فان اتفقوا على أحد منهم اعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد كانت هذه الوظيفة أي حفظ هذه الاية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

واما الرفادة فمنعها الاسفاف وكانوا يجمعون من أتقنهم أموالا لرفد المنتظمين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث بن عاصم صاحبها

واما السدانة والحجابة فمنعها خدمة « بيت الله » وحفظ مفتاحه والظاهر من هذه الوظيفة انها دينية ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته بتدبير الشؤون الاجتماعية وهذا العمل الديني نفسه قد كان عند القوم من أهم الامور العمومية في مدينتهم وجمهوريتهم وقد نستطيع ان نشبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتقدمة اليوم ولا يخفى ان وظائفهم من متمات مدينتهم، ولان

يتولونها شأن يذكر عندهم ، وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبد الدار الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها
واما الندوة فمنها ما ظهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني عبد الدار ايضاً

واما المشورة فيريدون بها رئاسة الشورى وليس يبيد عن الصواب اذا شبهناها من بعض الوجوه برآسة الوزراء أو رآسة مجلس الاعيان وكانت هذه الوظيفة من خصائص بني أسد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة ابن الاسود وكان من شأنهم في هذا الوظيفة ان رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على امر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه واقدم عليه والأخير وكانوا له أعراناً

واما الاشناق فهي الديات والمغارم فقد كانوا يساعدون من يستحق المساعدة من حمل مفرماً أو دية وكان النهوض مع صاحب المفرم لجمع المطلوب من خصائص بني تيم الذين منهم أبو بكر الصديق فكان أبو بكر اذا نهض مع أحد صدقه قريش واعانوا من نهض معه وان نهض غيره فخذلوه
واما القبة فأشبهت بنظارة الحربية ولكن كانوا يمدون اليها وقت الحرب فقط واعل ذلك لسداجة الحرب اذ ذاك أو لاستعدادهم لها كل وقت اذا تأججت نيرانها وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون اليها ما يجزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهم خالد بن الوليد صاحبها

واما الاعنة فمماها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومي ايضاً وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد العام في

الاسلام لجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام وما أظن
تاريخ فنّ التبعة اليوم يخلو من الاستثناس بذكر تلك التدابير المخزومية
التي كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أو الجمهورية)
وأما السفارة فالمراد بها ظاهر وقد كانوا يحتاجون الى السفارة في
الحروب أي في أوائلها أو بمد شوب نارها وتماظم أوزارها ويحتاجون
اليها اذا نافرهم حي للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص
بني عدي الذين منهم عمر بن الخطاب صاحبها وناهيك بذلك الخليفة
الثاني الشهير بكل منقبة صالحة اذا كان سفير قوم

وأما الايسار فهي الأزلام والقذاح كانوا يضربون بها اذا أرادوا
أصراً وكان هذا من خرافاتهم وعيوبهم ويحق لنا أن نبالغ في استهجان هذه
الخرافة التي كاثوا عليها الا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء الخرافة
كما هو الحال في كثير من الامور الباطلة التي تروج في الامم بسماح من
المقلد أو بترويج منهم لها وقد كانت هذه الوظيفة لبني جمع الذين منهم
صفوان بن أمية صاحبها

واما الاموال المحجرة فهي الاموال التي سموها لآلهم ويصح
أن تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اي ان بينها تشابهاً . وقد
كانت هذه الوظيفة أي تولي النظر في الاموال المحجرة من خصائص بني
سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها

هذا ما كان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة .
واما الامور الجزئية التي كان الافراد يختلفون فيها فتفصل فيها كبار اسرهم
وعشائرهم في الغالب على طريقة التحكيم ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة

وانما كانوا يفتنون في الامر كما يبدو لهم الصواب فيه ويقيسون
الامور باشباهها

وهنا يختر في بال القارئ أن يسأل عن الضيف الذي لا يأوي الى ركن
شديد من رهطه كيف كان حاله اذا أهين أو ظلم في ذلك المجتمع الذي
لا شرية فيه مكتوبة ولا قوة صورية من شأنها وخصائصها دفع القوي
عن الضيف . وقد بحثنا في هذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم ينسوها
ولم يهملوا شأنها وذلك انهم قرروا في مؤتمر لهم حماية الضيف والندود
عنه وكان من حديث ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت في دار
عبد الله بن جدعان الشهير وتماهدوا وتماقدوا على أن لا يجذوا في
مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن نخلها من سائر الناس الا قاموا معه
وكانوا على من ظلمه حتى رد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك حلف
الفضول وكانت الارهاط المتماقدة بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن
عبد العزي وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة

نم كان من النقص في نظامهم ان لا تكون حماية الضيف من
خصائص الجمهور ولكن يظهر انهم كانوا يكتفون في الضيف بأن يجيره
واحد من بيوت العزة والقوة فانه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور فلا
يجسأ حدان يعني عليه

ويمكننا ان نستخلص من كل ما تقدم ان القوم كان لهم شبه قانون اساسي
الاناه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية أو جنائية قط . والامر
في الامور المدنية سهل في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع
فيها ان يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه . واما الحوادث

الجناية فلا يجوز اهلها وتركها من غير ان يتولى الفصل فيها أناس مقيدون بقوة تنفيذية مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوم في العثار والبطون المتساكين في بلد واحد قد يكون مانعاً من كثرة الجنايات واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هذا نم الظير على تقليل المدوان وقد كان القوم يتواصون باجتنااب الظلم ولا سيما في البلد الامين ومن وصاياهم في ذلك قول اخذى نسايم توصي ابناها:

أبني لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير

واحفظ محارمها بني ولا يتركك الفرور

أبني من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور

أبني يضرب وجهه ويلع بخديه السعير

أبني قد جربتها فوجدت ظالمها يبور

الله آمنها وما بنيت بمرصتها قصور

والله آمن طبرها والعصم تأمن في ثبير

وتواصوهم بالهي عن الظلم يفرينا يتعرف فلسفة القوم التي كانت

تحهم على مثل هذا

الفصل الثالث

ديانة أهل مكة عند البعثة

ويظهر لنا أنهم طرقتوا كسائر الأمم باب الضالة المشوذة وهي معرفة ما هي نفوسنا ومن أين مبدأها والى أين متنها وماذا يزكيا وماذا يدسبها نعم طرقتوا هذا الباب ولكن يفتح لهم عن الطريق الموصل الى

هذه الحقائق المكنونة بل كانت نصيبهم كمنصب الاكثرين ظنوناً
ورجماً بالنيب

أدرك القوم ان العالم خالقاً ومدبراً هو الذي خلق السموات والارض
وما فيهن ، وهو الذي خلق السمع والابصار والافئدة ، وقالوا كما يقول
سوام انه تستحب الرغبة اليه والرهبة منه ولكن في هذا السبيل تاهوا
فتركوا همنا العقل والتفكر وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة أوثاناً
وقالوا ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل أو
كتماثيل لأناس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة
يقرب الى الله

لقد غلطوا في ظنهم ان الله يجب هذه الحجارة . وأخطأوا بزعمهم
ان تنزيل العقول الى تعظيم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيماً قلبياً يرضي
الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخليهم ان هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى
وقد كان الواجب ان لا يكون في قلوبهم حب وعبودة الا للحي القيوم
ولم يكن جائزاً ان يشر كوا به الجماد ،

وكان لهم أغلاط أخرى كثيرة في ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله
فقد زعم بعضهم ان الملائكة بناته ، وزعم بعضهم ان الجن شركاؤه في الملك
وظنوا جميعهم ان لن يبعث الله بشراً ليعلمهم ويركبهم ،

غلطوا في كل هذا وتسفت فيه عقولهم ولكن اعتقادهم بأن العالم
صانماً مدبراً عظيماً هو رب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العميد قدر تق
على ما فيه من الذم والبعث عن الطريق القويم قلوب كثير منهم وكأنه
أعدّها لقبول حق سيظهر نوره فيحقق خطيئاتهم الاعتقادية

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء الاخروي ولكن الحقيقة أنهم كانوا في ريب وشك أي لم يكونوا جازمين بشيء في هذا الباب وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزاء الاخروي ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء الاخروي لم يكن مانعاً من ان تكون قلوبهم منجذبة الى الاخلاق والاعمال الطيبة التي تحث على مثلها الديانات من البر والإحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضيف وترك المدوان والابتعاد عن الخيانة والبغي وما أشبه هذه المناقب وعقولهم انما طرأ عليها التسفل الى تعظيم الجماد لان الوثنية هي الغالبة في عصرهم ولا يبعد عن الصواب من يقول ان الوثنية هي الغالبة على طباع البشر كلهم الأتقيلاً

فاذا صرفنا نظراً عن تلوث عقولهم بنزعات الوثنية لا نجد من يمدح هذه العقول مظلمة وهي التي اضاءت لهم فمرفوا بها الاخلاق الصالحة والفاسدة ولم يكن يوزم الا ان يقوم فيهم مرشد يهديهم التي هي أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته والتقرب اليه بتوجيه الوجه واسلام القلب اليه ولولا ان للقوم عقولا صافية لما رجي لهجي المرشد من فائدة لانه لا يظهر نور الارشاد الا في اللوح النقي ولكن الرجاء بالقوم في محله فانه لما جاء المرشد لتي أراضى في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقى البدار والى جانبها أراض أخرى فيها من أعشاب التمسك بالتقديم ما يحتاج الى زمن في معالجة ازالته وقليل من الاراضي كانت سبخة ليس في الامكان أن يتبع فيها البدار

لا يهولك من القوم سقم عقولهم فيما كانوا يعتقدون فان البشر

كلهم الا قليلاً كانوا ولا يزالون يتمتدون أمثال معتدات القوم
فوا أسفاه ان هذا العيب عام وراسخ في البشر ومن أصعب الاشياء استئصال
جنوره ولا ندري السر في هذا . ولكن انظر الى هذه الجماعة القليلة
كيف أقامت لها شأنًا رفيعاً في العرب كلهم اذ ظلتهم على التوطن في
جوار البيت المشرف وأحسنت المقام في هذا الجوار الشريف فقامت
بمقوق حجاجه من ستائهم ورفادتهم ، وقامت بمقوق المستضعفين فيه
من حمايتهم وتأمينهم ، وقامت بسنن التضامن والتعاون والتواصي بالعدل
والاحسان حتى رضي العرب بتقديمهم عليهم اذا تقدموا واياهم لأمر
عظيم وشرف جسيم على انهم ليسوا في العرب أكثر عدداً ، ولا أقوى
ناصرأه لا جرم قد خصهم الله بأفراد كانوا في نقاء القلوب آية ، وبلغوا
في صفاء العقول الفاية ، والأمة والشعوب تحيي بأفراد وتموت بأفراد

واذا سخر الإله سيدياً لانس فأنهم سعداء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد حرثهم التي كانوا عليها فأنهم
لما خلاصوا من تملك أحد عليهم خلصوا من شرور كثيرة تتبع التملك
فكانت معاشراتهم ساذجة خالية من عبارات الملق والخنوع وكانت
مكاسبهم لا تقسم لا يشاركون فيها مشارك ولا يعرفون المغارم المرتبة
والاتاوات المنزوية

وهم في أمن من حيف القضاة لانهم انهم يتحاكمون يوم يشاءون الى
من يرضونه من كبارهم ولا قانون لهم في المسائل الجزئية ترتد من
أحكامه فرائضهم وانا يحشون بأس بعضهم فيرتدعون عن الشر الذي
يثار له السوم أو يثار له من أصابهم خاصة

وكان جائزاً لا حدم ان يتدين كما يريد بشرط ان لا يعيب دينهم
الذي كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله وقد كان لبعضهم فلسفة في النشور
والجزاء الاخرى وبعضهم انصرف عن عبادة الاوثان وبعضهم ميل
الى تقليد أهل الكتاب فلم يكونوا يحاسبون أحداً على مثل هذا
ولم يكن لديهم نوع من المبايعات حراماً بل يبيعون ويشترون كما
يشاءون وكل منهم عارف بمصلحته ولهم همة في التجارة والرحلة فيها الى
النأم وغيرها في الصيف والشتاء

أما أهل الصنعة فيهم فلم يكن لهم من قيمة والغالب ان يكون
الصناع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهي امتياز الرقيق واحتقاره
وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من إكراه امائه على
البناء ليأخذ ما يعطين في سبيله

أما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزاً لمن الزنا ولا سيما اذا كان لمن
بعولة يدهانه لم ينقل لنا انهم رتبوا على الزواني عقاباً بل كان عقابهن الى
رأي أهليهن اذا شاءوا

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهن ان يواجهن الرجال ويبرزن
أمامهم حاسرات ويمكن ان يقال بالاجمال ان حرية الرجال والنساء كانت
تامة ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق
ولم يذكروا انه يستحق الرحمة لانه مسلوب أفضل كساء كساهموه ربههم
الأعلى، الذي خلق فسوتى،